التاريخ والدبلوماسية أية علاقة؟

الباحث الديري محمد
طالب السنة الثانية سلك الدكتوراه مسلك الشريعة والقانون وقضايا العصر
جامعة سيدي محمد بن عبدالله فاس، كلية الشريعة والقانون
المغرب

ملخص الدراسة بالعربية:

تعتبر الدبلوماسية قديمة قدم التاريخ نفسه، ذلك ان ظهورها كان مع ظهور الكيانات السياسية والجماعات البشرية التي كانت تدخل في علاقات واتفاقيات ثنائية، إن فهم التاريخ والدبلوماسية بمفردهما ليس كافيًا لفهم عمق الأحداث وتكوين العلاقات بين الدول. وعلى مر العصور، كانت الدبلوماسية هي لغة الدول ووسيلتها للتفاوض وحل النزاعات. ومع كل فترة زمنية، يظهر التاريخ كسجل حي يحفل بالقرارات والأحداث التي أثرت في مسارات الأمم والتي ألهمت ممارسات الدبلوماسية. من خلال استعراض لحظات التاريخ والدبلوماسية، كيف ساهمت تراكمات التجارب الدبلوماسية في تطوير العمل الدبلوماسي على مر العصور؟ وما هي التحديات المستقبلية التي قد تواجه مجال الدبلوماسية، في حل النزاعات بين الأمم وفي اتخاذ القرارات الصائبة في بناء السلم والاستقرار الدولي.

الكلمات المفاتيح: الدبلوماسية – التاريخ – التجارب الدبلوماسية – التحديات المستقبلية.

ملخص الدراسة بالإنجليزية:

Diplomacy is considered as old as history itself, because its emergence was with the emergence of political entities and human groups that entered into bilateral relations and agreements. Understanding history and diplomacy alone is not sufficient to understand the depth of events and the formation of relations between countries. Throughout the ages, diplomacy has been the language of states and their means of negotiating and resolving conflicts. With each period of time, history emerges as a living record filled with decisions and events that influenced the paths of nations and that inspired the practices of diplomacy. By reviewing moments of history and diplomacy, How have the accumulations of diplomatic experiences contributed to the development of diplomatic work throughout the ages? What are the future challenges that may face the field of diplomacy, in resolving conflicts between nations and in making the right decisions in building international peace and stability?

Keywords: **diplomacy – history – diplomatic experiences – future challenges**

مقدمة:

إن تاريخ الدبلوماسية يمتد لعصور قديمة، حيث شهد تطورا وتحولا تأثرت به أنظمة الحكم عبر التاريخ. ويعتبر فهم التاريخ الدبلوماسي للدول أمرًا حيويًا لفهم العلاقات الدولية الحديثة وتأثيرها على تشكيل المستقبل، ومن خلال الغوص في مفهوم الدبلوماسية وجذورها التاريخية وتطورها على مر العصور، يفرض علينا الموضوع طرح مجموعة من الإشكاليات من قبيل: ما مفهوم التاريخ؟ وما مفهوم الدبلوماسية؟ وما هي مختلف المراحل التاريخية التي مرت منها الدبلوماسية تاريخيا؟ وما هي العلاقة التي تربط بينهما؟ وكيف يمكن أن يسهم الفهم العميق للتاريخ في تحسين ممارسات الدبلوماسية واتخاذ قرارات صائبة وأكثر حكمة؟

أهمية الموضوع: إن الأهمية التي يسعى من خلالها موضوع الدراسة هو في بحث وتحليل لمفهوم الدبلوماسية وجذورها التاريخية، فظاهرة الدبلوماسية في وقتنا الحاضر تحتل أهمية بالغة في مسار تطور العلاقات الدولية وهذا ما يستوجب معالجة الموضوع بأبعاده التاريخية.

إشكالية الدراسة: إن تناول موضوع الدبلوماسية وعلاقته بالتاريخ من المواضيع التي تستوجب الدراسة لمعرفة السيرورة التاريخية للدبلوماسية لهذا ارتأينا طرح إشكالية مفادها التاريخ والدبلوماسية أية علاقة؟ سنحاول أن نجيب عن هذه الإشكالية من خلال ربط الماضي بالحاضر.

منهج الدراسة: إن المنهج الذي سنحاول معالجة هذا الموضوع من خلاله هو المنهج التحليلي للوقوف على بعض المفاهيم الخاصة بالدبلوماسية والتاريخ، بالإضافة إلى المنهج التأصيلي للتعمق في الجذور التاريخية لهذه العلاقة.

خطة البحث: لدراسة هذا البحث والإحاطة بشفراته كان لابد من تناوله في ثلاثة محاور. نتناول في **المحور الأول**: مفهوم التاريخ والدبلوماسية حيث نسلط الضوء على بعض التعاريف، لكل من التاريخ والدبلوماسية، جردها وتحليلها. أما **المحور الثاني** التطور التاريخي للدبلوماسية حيث سنعرج على تاريخ الدبلوماسية عبر الأمم السابقة في سياق تسلسلي لهذه الحضارات السابقة ومدى علاقتها بالدبلوماسية، ثم في **المحور الثالث** نحاول أن نبحث عن علاقة التاريخ بالدبلوماسية تاريخيا وحاضرا ومستقبلا في ظل التطورات التي يعرفها مجال الدبلوماسية على الصعيد العالمي من تقدم خصوصا في ظل الثورة المعلوماتية في القرن الواحد والعشرين

المحور الأول: مفهوم تاريخ الدبلوماسية

قبل التطرق إلى هذا الموضوع لابد من الغوص في السياق التاريخي والمفاهيمي للعلاقات الدبلوماسية حتى نتمكن من الوقوف على نشأة التاريخ والدبلوماسية وتطورهما إلى أن أصبحا لهما قواعد علمية مقننة فيما يعرف اليوم بالقانون الدبلوماسي وعلم التاريخ فما هو مفهوم التاريخ؟ وما هو مفهوم الدبلوماسية؟

❖ أولا: تعريف التاريــخ

إن علم التاريخ هو من أجل العلوم وأعظمها، وهو العلم الذي حاز على اهتمام الكثير من العلماء والمفكرين في مختلف الحضارات والأمم، ومن الجدير بالذكر أن علماء ومؤرخي المسلمين حين يتحدثون عن التاريخ يصفونه بالفن والعلم الجليل[1]. فالتاريخ هو العلم الذي يعنى فيه المؤرخون بدراسة الماضي الإنساني، ويدرسون الحوادث الماضية والوثائق ويبحثون كل ما تركه القدماء من آثار. وقد اعتبر التاريخ مجالًا شاملًا يعنى بدراسة الماضي وفهم تطور البشرية وتأثير الأحداث على التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي. يمتد

مجال دراسة التاريخ منذ بداية الحضارات البشرية وحتى الوقت الحاضر. يُعتبر الباحثون في التاريخ أنفسهم علماء اجتماع، حيث يحللون الأحداث والظواهر ويحاولون فهم تأثيرها على المجتمعات والأفراد.

يقول عبد الله العروي "...إن التساؤل حول مفهوم التاريخ أمر جوهري وتافه في آن. هذا ما قاله ابن خلدون وهذا ما نؤكده اليوم، ...جوهري لأنه قائم أينما اتجه الفكر، وتافه لان منفعته غير واضحة لكل فرد متخصص الخطاب موجه في ظاهره إلى المؤرخ لكنه في العمق يستهدف كل مفكر..."[2]، فالعروي يؤكد على البعد الابستمولوجي لمفهوم التاريخ بالنسبة للمفكر قبل المؤرخ، مادام التاريخ في حقيقته هو المجال المفضل للفكر.

وقبل الغوص في الموضوع لابد من إعطاء تعريف للتاريخ، والذي عرفه مجموعة من الباحثين قديما وحديثا لكن يبقى مدلول كلمة التاريخ أو التأريخ في اللغة العربية على الإعلام بالوقت، مضافا إليه ما وقع في ذلك الوقت من أخبار ووقائع[3]، والتاريخ بهذا المعنى اللغوي قديم، كما قال الجوهري "التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله، يقال أرخت وورخت"[4]، أما المقريزي فيعرف " التاريخ بأنه إخبار عما حدث في العالم الماضي"[5] أما تعريف ابن خلدون للتاريخ في مقدمته الشهيرة على أنه : " ... في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الواقع وأسبابها عميق..."[6]، في هذا التعريف حاول ابن خلدون أخذ بقواعد الجرح والتعديل المطبقة عن أهل الحديث.

من خلال هذه التعريفات الوجيزة وغيرها يتضح لنا أن التاريخ عند اغلب المؤرخين هو بحث ودراسة واستقصاء لأخبار الناس وحركتهم، والنظر في أحوالهم الماضية، أما موضوعه فهو الحياة الإنسانية في امتدادها الزمني على الأرض منذ بدء الخلق إلى اليوم، وما يحكم هذه الحياة من عوامل وأسباب. فالتاريخ كما يظنه كثيرون، مجرد تدوين لأحداث تمت أو وقائع مضت. فالتدوين ما هو إلا خطوة مبدئية تتمثل في نقل المحفوظ – الشفوي غالبا – إلى المكتوب ليستقر في شكل وثائق دفعا للنسيان[7].

عند الرجوع إلى علاقة التاريخ بالدبلوماسية، لا نعلم على وجه الدقة متى كان اول استخدام لمفهوم الدبلوماسية، إلا أن أقدم الشواهد على الدبلوماسية هو ما يُعرف بمعاهدة قادش، التي عُقدت بين الحيثيين الذين استوطنوا فيما يُعرف اليوم بتركيا وسوريا ولبنان، وبين الفراعنة في مصر، حيث تضمَّنت بنوداً قانونية وعسكرية ودبلوماسية، نظَّمت العلاقات بينهما وأرخت لسلام استمر أكثر من مئة عام[8].

❖ ثانيا: تعريف الدبلوماسية

الدبلوماسية تُعرف بأنها النظام الذي يحكم العلاقات بين الدول والمنظمات الدولية، وتشمل مجموعة من القواعد والأعراف والمبادئ الدولية التي يتعين اتباعها لتطبيق أحكام القانون الدولي وتحقيق التوازن بين المصالح المختلفة للدول. تشمل مهام الدبلوماسية إجراء المفاوضات والمؤتمرات الدولية، وتوقيع الاتفاقيات والمعاهدات، واستقبال الوفود الدبلوماسية، وتنظيم حفلات الاستقبال الرسمية. لكن يبقى التعريف الشامل لها يتجلى في كونها: "فن تحسين العلاقات الدولية بين اشخاص القانون الدولي عن طريق ممثلين شرعيين لهم المهارة في استخدام طرق التسوية السلمية" ومن أجمل تعريف للدبلوماسية هو: "أنها فن الحصول على الممكن بدلاً انتظار المستحيل"[9]. لكن قبل الخوض في هذا المفهوم الفضفاض لابد من تأطيره لذا سوف نعرفه لغة واصطلاحا.

الدبلوماسية: لـغـة

لابد قبل الحديث عن أي موضوع أن نحاول فك شفراته من خلال تعريفه والإحاطة به لغة « تعود كلمة دبلوماسية بأصل اشتقاقها إلى اللغة اليونانية من اسم دبلوما (DIPLOMA)، الذي تشتق منه كلمة دبلوم (DIPLOME)، والذي يعني أساسا الوثيقة الرسمية التي يمنحها أصحاب السلطة وتمنح حاملها مزايا معينة، انتقلت هذه الكلمة إلى اللغات الحية ومنها اللغة العربية لتعبر عن مفهوم ومعنى يتخطيان اللفظ اللغوي أو الترجمة اللغوية»[10] ، فالدبلوماسية يعود أصلها إلى العهد اليوناني وقد عرف هذا المصطلح تطورا بانتقاله إلى مختلف لغات العالم ومنها العربية التي احتفظت بالمصطلح الأجنبي مع اللفظ العربي "**الدبلوماسية**".

❖ **الدبلوماسية: اصطلاحا**

هناك عدة تعاريف للدبلوماسية، ومن الصعب حصرها وجمعها في تعريف واحد، نذكر منها: «الدبلوماسية هي عملية سياسية ترتبط مباشرة بإدارة وتوجيه العلاقات الخارجية للدول والشعوب بما يخدم مصالحها، وهي تجلٍ للعلاقات الدولية في مستواها السياسي القائم على مجموعة القواعد والأعراف الدولية الهادفة إلى تنظيم التعامل بين أشخاص القانون الدولي، وتبيان حقوق وواجبات وامتيازات هؤلاء الأشخاص مع تبيان شروط عملهم ووظائفهم الهادفة للتوفيق بين المصالح المتباينة سواء أكان ذلك في زمن السلم أم في زمن الحرب»[11]. ونستشف من هذا التعريف أن الدبلوماسية هي عملية سياسية تعنى بالعلاقات الخارجية للدول على مستواها السياسي القائم على القواعد والأعراف الدولية، فهي تركز على الوظائف المصلحية المتبادلة بين الدول في الحرب والسلم.

والدبلوماسية مصطلح قديم يرجع في أصول استعماله إلى عهد اليونان القدامى ثم انتقل منهم إلى الرومان ومن هؤلاء إلى اللغات الأوربية الحديثة كالفرنسية والانجليزية كما انتقل إلى العربية وغيرها من اللغات[12]. وقد تقاربت أراء الباحثين حول أصل التسمية، فقد اعتبر عمر توفيق كمال أن الدبلوماسية في أصلها اليوناني القديم انشقت من فعل (دبلو) ومعناه يطوي أو يثني ومنه جاء اسم تلك الوثيقة أو المكاتبة الرسمية التي تطوى أو تثنى والتي عرفت باسم (دبلومة) والتي كان يبعث بها الحكام وأصحاب السلطان في علاقاتهم الرسمية، وقد كانت تخول لحاملها امتيازات ومعاملة خاصة أثناء سفره لأداء المهمة الملقاة على عاتقه[13] .

يقول عبد الهادي التازي إن كلمة الدبلوماسية مأخوذة من (دبلومه) وتعني وثيقة السفر المختومة والمطوية على بعضها. ولم تلبث أن استعملت في اللاتينية العلمية العصرية إلا خلال ق 17 هكذا (ديبلوماتيكوس)، وفي أوائل القرن 18 (1708) استعمل وصف (دبلوماتيك) في اللغة الفرنسية بمعنى الذي يهتم بالدبلومات والعقود وقد أصبحت الصفة سنة (1726) تعني ما يتعلق بالدبلومات التي تمس العلاقات الدولية، وابتكرت سنة (1791) كلمة الدبلوماسية التي تعني البحث في العقود التي تصل بين الدول[14].

وهكذا، يمكن القول إن الدبلوماسية نشأت منذ فجر التاريخ كوسيلة للتواصل والتفاهم بين الجماعات البشرية المتجاورة. فمع بداية تكوين المجتمعات الأولى وتداخل مصالحها، ظهرت حاجة ملحة لنمط من الأساليب الدبلوماسية كسلوك اجتماعي يفرضه الحاجة إلى التفاهم وتبادل المنافع وتحقيق السلام. عبر العصور، تطوّرت علاقات دبلوماسية متنوعة في أشكالها، ورغم اختلافها، إلّا أنها تشابهت في أغراضها ووسائلها والنتائج التي أسفرت عنها. يمكننا القول بأن بعض التقاليد الدبلوماسية الحديثة تستمد جذورها من تلك التي عرفتها الإنسانية في عصورها البدائية.

والملاحظ أن وسائل الدبلوماسية تشمل أعمالًا كالمراسلات والمفاوضات وتوقيع الاتفاقيات والمعاهدات. وتتضمن أيضًا الضغط والتهديد، وتكوين الأحلاف والمحاورة السياسية، واستخدام وسائل التخابر السرية، مع التركيز على العوامل التي تؤدي إلى

نشوء العلاقات الدبلوماسية وتأثيرها على مسارها والنتائج التي تتحقق منها. في ضوء هذه المقومات والمفاهيم، يصبح البحث في تاريخ الدبلوماسية والعلاقات الدبلوماسية أمرًا ذا أهمية بالغة.

❖ تطور تعريف الدبلوماسية تاريخيا:

على مر العصور، كان للدبلوماسية أثر كبير وفوائد عديدة على العلاقات الدولية في تسوية النزاعات بالطرق السلمية من خلال التوصل إلى تحقيق تفاهمات وحلول الوسط بالطرق السلمية مما كان سببا في التقليل من احتمال حدوث صراعات مسلحة ويساهم في الحفاظ على السلم والأمن. وبشكل عام، تُعتبر الدبلوماسية أداة حيوية لتحقيق الفهم المتبادل، وتعزيز التعاون، والتعاريف الدبلوماسية تتعدد وتستخدم للإشارة إلى معان مختلفة لدرجة أنه يصعب جمعها كلها في تعريف واحد، وقد اختلف المهتمون في تحديد معنى الدبلوماسية على مر التاريخ ومن جملة التعريفات التي أوردها الكتاب في هذا المجال.

- **تعريف معاوية بن أبي سفيان** ويعتبر من أقد م التعاريف الدبلوماسية العربية الإسلامية من خلال مقولته التي تعتبر أبلغ تعبير في وصف الدبلوماسية: "لو أن بيني وبين الناس شعره ما انقطعت، إذا أرخوها شددتها وإن شدوها أرخيتها"[15].
- **تعريف شارل كالفو**: الدبلوماسية هي علم العلاقات القائمة بين الدول كما تنشأ عن مصالحها المتبادلة وعن مبادئ القانون الدولي، ونصوص المعاهدات والاتفاقات ومعرفة القواعد والتقاليد التي تنشأ وهي علم العلاقات أو فن المفاوضات أو فن القيادة والتوجيه[16].
- **تعريف هنري كيسنجر**: "الدبلوماسية هي تكييف الاختلافات من خلال المفاوضات "[17].
- **تعريف سموحي فوق العادة** بأنها: "مجموعة القواعد والأعراف والمبادئ الدولية التي تهتم بتنظيم العلاقات القائمة بين الدول والمنظمات الدولية والأصول الواجب اتباعها في تطبيق أحكام القانون والمؤتمرات الدولية، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات"[18] .
- **د. علي حسين الشامي**: " الدبلوماسية هي علم وفن إدارة العلاقات بين الأشخاص الدوليين، وهي مهنة الممثلين الدبلوماسيين، أو الوظيفة التي يمارسها الدبلوماسيون، وميدان هذه الوظيفة هو العلاقات الخارجية للدول والأمم والشعوب "[19].

إن تطور كلمة دبلوماسية ارتبط على مر الزمن بتطور الممارسة الدبلوماسية إلى أن شاع استعمالها بالمعنى المتعارف عليه حاليا، والدبلوماسية هي علم وفن يتعلق بإدارة العلاقات الدولية والتفاوض بين الدول. كما أنها تعبر عن فن تمثيل الدول في المفاوضات وحل النزاعات، بالإضافة إلى إدارة العلاقات الرسمية بين الدول وتحقيق المصالح الوطنية بشكل سلمي وفقًا للمبادئ القانونية والسياسية المتعارف عليها.

المحور الثاني: التطور التاريخي للدبلوماسية:

قبل الخوض في التطور التاريخي للدبلوماسية لابد من القول بأن الدبلوماسية كانت بدايتها محدودة ومؤقتة، فكانت تقتصر على دبلوماسية حرب ودبلوماسية أحلاف بين الملوك، ولهذا كانت الدبلوماسية تسخر في خدمة مصالح هذه الإمبراطوريات كأداة للترهيب من شبح الحرب ومما سيصيب البلاد المتمردة عليها من خراب ودمار[20]. ويذهب عبد الهادي التازي إلى القول بأن التاريخ كان ومازال نقطة يلتقي عندها الباحثون في شتى الميادين وهكذا فلا مناص للذين يهتمون بالتطور السياسي والاجتماعي والديني والثقافي لأمة من الأمم من دراسته بل إنه يرى بضرورة فتح آفاق أمام دراسة التاريخ الدبلوماسي[21].وهذا ما يؤكده الدكتور عمر كمال توفيق على أن من بواعث اهتمام الباحثين في العلاقات الدولية والقانون الدولي العام بالدبلوماسية، ما لهذه الأخيرة من أهمية في تاريخ الإنسانية والعلاقات الدولية[22].

إن علاقة التاريخ بالدبلوماسية علاقة وطيدة حيث تعود نشأة الدبلوماسية تاريخيا إلى العصور القديمة حيث كان هناك اتصال بين شعوب الدول سواء من خلال ميدان القتال والغزو أو من خلال علاقات سلمية، حيث الاتفاق والتعاهد هما السمتان الأساسيتان في التفاوض الدبلوماسي. وقد أصبحت الدبلوماسية في الوقت الحاضر علم يهتم بدراسة العلاقات والمصالح المتبادلة بين الدول والأفراد.

أولا: الدبلوماسية والتاريخ الدبلوماسي

تطورت الدبلوماسية بتطور العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع القبلي مما أدى إلى بروز بعض القواعد والأغراض أهمها كانت أن البعثات الدبلوماسية تنشأ عند الإعلان عن تولي زعيم جديد للسلطة، أيضا أنه كان إرسال البعثات والسفراء يجري بهدف القيام بالاتصال والبحث من اجل المصاهرة والزواج، وأن غاية البعثات تطوير العلاقات الودية والنبذ والدعوة للمفاوضات وعقد الصلح والاحتفال بإرساء قواعد السلام، إضافة أن البعثات الدبلوماسية كانت تقوم بدور في إعلان الحرب أو التهديد بها.

تعتبر معاهدة قادش[23] بين الفراعنة والحثيين سنة 1279 ق.م أقدم معاهدة نشطت فيها الدبلوماسية حيث برزت أهمية هذه المعاهدة في تاريخ العلاقات الدولية في ثلاثة أمور، أنها تعتبر أقدم وثيقة حتى الآن في تاريخ القانون الدولي، وأنها بقيت حتى العصور الوسطى النموذج المتبع في صياغة المعاهدات لما تضمنه من مقدمات ومتن وختام، وأنها ترسم لنا صورة صادقة عن أوضاع المماليك في الشرق القديم وعن كيفية انصهار الدولة بشخص الحاكم أو الملك. ومن بين الأمم التي عرفت دبلوماسية نشيطة نجد:

-**الدبلوماسية في عهد الإغريق** : عرفت هذه الدبلوماسية مبدأ التسوية بالتراضي أو المصالحة، وعرفوا الاتفاق أي الهدنة المحلية المؤقتة. وتميزت الدبلوماسية عند الإغريق بعدة خصائص أهمها عدم وجود ممثلين دائمين، وأن الديمقراطية الإغريقية كانت تضع مبعوثيها موضع الشك دائما، والسفراء يحملون تصريحات السفر والانتقال عبر البلدان، وكان للسفراء حصانات وامتيازات لا يخضعون لسلطة القضاء المدني والجنائي المحلي في البلد الموفد إليه، وكان يحرم على السفراء قبول الهدايا، ومن أبرز ما يحرمه اليونان في تاريخ العلاقات الدولية هو نظام القناصل.

-**الدبلوماسية في عهد الرومان** : ورث الرومان عن الإغريق بعضا من التقاليد والقواعد الدبلوماسية، ووصلت العلاقات الدبلوماسية مرحلة من التطور والانتظام من خلال المؤتمرات، ولجأت روما إلى رفض فكرة المفاوضة والدخول في معاهدات وتحالفات بين روما وغيرها من المدن، وكان أفضل ما ابتدعته الرومان مبدأ (سحق خصمهم العنيد والصفح عمن يخضع لهم).

-**الدبلوماسية في عهد البيزنطيين** : كانت الدبلوماسية أكثر مهارة في استخدام الدبلوماسية وممارستها، واتبع البيزنطيون أسلوب التفاوض، وفض الخلافات بحد السيف وحده لا يكفي، وابتكروا ثلاثة أساليب هي ساسة إضعاف للشعوب و القبائل البرابرة من خلال نشر التفرقة وذلك بهدف تقوية وحدتهم الداخلية، وشراء صداقة الشعوب والقبائل المجاورة بطريق الرشوة والهدايا، وإدخال اكبر عدد ممكن في الديانة المسيحية[24].

الدبلوماسية في العصر الحديث:

شهدت العصور الحديثة تطورات مهمة في التاريخ الدبلوماسي مثل ظهور التمثيل الدبلوماسي الدائم وانعقاد المؤتمرات وقيام المنظمات الدولية وما نجم عنها من تطورات ايجابية في العمل الدبلوماسي فقد مرت الدبلوماسية في العصر الحديث بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى: تطور الدبلوماسية من القرن الخامس عشر إلى مؤتمر فيينا لسنة 1815م

يتفق الباحثون علي أن بداية ممارسة التمثيل الدبلوماسي الدائم كانت قد ظهرت في الجمهوريات الايطالية في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. بيد أنهم يختلفون في التحديد الدقيق لهذه البداية من حيث الزمن والمكان.

وبدا نظام التمثيل الدبلوماسي الدائم، الذي أخذت به الدويلات الايطالية، ينتشر بصورة تدريجية إلى بقية دول اروبا. فقد أوفدت اسبانيا أول سفير لها إلى انجلترا في عام 1487.

1- إن مؤتمر وستفاليا[25] لسنة 1648 يعتبر فاتحة لما سمي فيما بعد (بالدبلوماسية الجماعية) أو دبلوماسية المؤتمرات فهو أول اجتماع عقد بين الملوك والآمراء في هيئة مؤتمر، حيث أقر نظام إحلال البعثات الدبلوماسية الدائمة محل البعثات الدبلوماسية المؤقتة وقد تميزت الدبلوماسية في هذه المرحلة بمجموعة من الخصائص أهمها التأثر ببعض الأفكار التي ظهرت في تلك الفترة. ومن ذلك تأثرها بأفكار (ميكيافللي) الذي يرى أن مصلحة الدولة فوق كل الاعتبارات، وبالتالي يجب العمل على تحقيق أهدافها بكل الوسائل والأساليب بما فيها الأساليب اللا أخلاقية كالخداع والمكر وبث الدسائس والفتن. فهو يري ان الغاية تبرر الوسيلة، والدبلوماسية عنده ليست سوى كلمة رقيقة تخفي وراءها شريعة الغاب [26] .

المرحلة الثانية: تطور الدبلوماسية من مؤتمر فيينا لسنة 1815م إلى الحرب العالمية الأولى

لقد شكل مؤتمر فيينا لسنة 1815 نقطة تحول ايجابي في تاريخ تطور الممارسة الدبلوماسية. فهذا المؤتمر انبثقت عنه معاهدة فيينا لنفس العام، والتي بلورة التعامل القائم ونظمت قضايا الأسبقية وترتيب درجات المبعوثين الدبلوماسيين التي كانت مصدر للنزاعات التي نشبت في السابق ويمكن تلخيص الخصائص التي اتصفت بها الدبلوماسية في هذه المرحلة فيما يلي:

- ✓ إن المبعوثين الدبلوماسيين أصبحوا يمثلون دولهم بعد أن كانوا في السابق يمثلون ملوك ورؤساء هذه الدول بصورة شخصية.
- ✓ أصبحت البعثات الدبلوماسية أجهزة رسمية تتبع الجهاز الإداري للدولة، واضحي الدبلوماسيون موظفين رسميين في الدولة ينتمون ادارياً إلى المؤسسة المختصة بإدارة الشؤون الخارجية.
- ✓ اتسمت الدبلوماسية في هذه المرحلة بالسرية وانحصارها في فئة ضيقة من مسؤولي الدولة تتمثل في صناع القرار السياسي بالدرجة الأولى.
- ✓ كان النشاط الدبلوماسي ضيق النطاق، إلي حد كبير، حيث كان شبه مقتصر على القارة الأوروبية التي كانت تمثل مركز الثقل الدولي في ذلك الوقت.
- ✓ تمتع المبعوث الدبلوماسي بقدر كبير من حرية التصرف فيما يتعلق بمهامه في الدولة الموفد إليها، وذلك نظراً لقلة وسائل الاتصال والمواصلات التي حالت دون مراقبة الدولة الموفدة لمبعوثيها والاتصال بهم من حين إلي أخر مثلما هو الحال عليه ألان.
- ✓ تهميش دور الرأي العام، حيث كانت الحكومات لم تول الرأي العام أي اهتمام آو اعتبار، ولم تكن على درجة من التأثر بضغوطاته[27] .

المرحلة الثالثة: تطور الدبلوماسية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى

شهدت الدبلوماسية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولي جملة من التطورات الايجابية التي ميزتها عما كانت عليه في المراحل السابقة، ولذلك أصبحت تعرف بعد هذه المرحلة بالدبلوماسية المعاصرة تمييزاً لها عما كانت عليه في السابق. ولاشك في إن

النمط التقليدي للدبلوماسية، الذي كان سائد قبل الحرب العالمية الأولي، يختلف اختلافا كبيراً عن النمط المعاصر. فالدبلوماسية التقليدية كانت تتسم بالسرية في معظم جوانبها، كما أنها كانت محدودة النطاق. وقد استمرت هذه الدبلوماسية حتي نهاية الحرب العالمية الأولي حيث بدأت تتحول وتتغير تحت تأثير جملة من العوامل أهمها إعلان الرئيس الأمريكي الأسبق (وودرو ويلسون) لمبادئه الأربعة عشر في 8 يناير 1918 والتي تضمنت، في جملة ما تضمنته الدعوة إلي انتهاج الدبلوماسية العلنية ، فقد جاء في إحدى تلك النقاط قوله (تعقد اتفاقات الصلح بصورة مكشوفة، ولن تقوم بعدها اتفاقات دولية خاصة مهما كان نوعها. كما إن الدبلوماسية ستجري دائماً بصراحة.

بانتهاء الحرب العالمية قيام منظمة الأمم المتحدة سنة 1945 شهدت الدبلوماسية بعض التطورات على الصعيد التنظيمي بفضل جهود الأمم المتحدة، ففي 5 ديسمبر 1952 أصدرت الجمعية العامة قرار دعت فيه لجنة القانون الدولي إلي العمل على تقنين موضوع العلاقات والحصانات الدبلوماسية وإعطائه أولوية على سائر الموضوعات الأخرى[28].

المحور الثالث: علاقة التاريخ بالدبلوماسية

التاريخ والدبلوماسية يرتبطان بشكل وثيق، حيث تعكس الممارسات الدبلوماسية تطور العلاقات بين الدول على مر العصور، وتلعب الأحداث التاريخية دورًا هامًا في تشكيل هذه الممارسات من خلال تبادل العلاقات الدبلوماسية بين البلدان وهو أول مظهر من مظاهر العلاقات الدبلوماسية تاريخيا، ومن مميزات الدبلوماسية المحافظة على الترابط في العلاقات بين الدول وللوصول إلى هذا الهدف، تم تنظيم العديد من المواثيق والمعاهدات والاتفاقيات الدولية، كما أن الدبلوماسية عبر التاريخ كانت تعتمد على العرف الدولي على قواعد تكاد تكون ثابتة، واجبة الاتباع من طرف كلا الأطراف ومن بين الجوانب التي تظهر علاقة التاريخ بالدبلوماسي نجد:

- ساهمت الأحداث التاريخية على مر العصور في تطوير الدبلوماسية حيث تأثرت بالأحداث الكبرى مثل الحروب، والتحولات السياسية، التطورات الاقتصادية.
- تاريخيًا، أسهمت الدبلوماسية بفاعلية في تقدم عمليات التفاوض والتوقيع على المعاهدات، وشكلت قاعدة لتشكيل الاتفاقيات، مما يعكس التحولات والتغيرات في توازن القوى الدولية على مر العصور.
- يسلط التاريخ الضوء على دور الزعماء الدبلوماسيين في توجيه السياسة الخارجية وتشكيل العلاقات بين الدول. يشمل ذلك دور السفراء، والدبلوماسيين، والزعماء الذين قادوا المفاوضات الهامة.
- إن التاريخ الدبلوماسي حافل بالتجارب الدبلوماسية التي ساهمت في إبراز قادة وزعماء دبلوماسيين في تطوير وتوجيه السياسة الخارجية وتشكيل العلاقات بين الدول.
- يظهر التاريخ كيفية تأثير التطورات التكنولوجية ووسائل الاتصال على ممارسات الدبلوماسية. مثل كيف تغيّرت الرسائل الدبلوماسية من الرسائل الورقية إلى وسائل الاتصال الحديثة.
- تلعب الأزمات والحروب دورًا كبيرًا في تشكيل ممارسات الدبلوماسية. يمكن أن تؤدي الأحداث الكارثية إلى تغييرات كبيرة في العلاقات الدولية وتوجيه سياسات الدول.

❖ **ومن بين الأهداف التي تعمل الدبلوماسية على تطويرها نجد:**

1. **تعزيز العلاقات الدولية:** تهدف الدبلوماسية إلى تعزيز العلاقات الدولية بين الدول وتحقيق التعاون في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

2. **تمثيل الدولة:** يعتبر الدبلوماسيون الممثلين الرسميين للدولة في الخارج، حيث يعملون على توثيق العلاقات الدبلوماسية والتواصل مع الدول الأخرى.

3. **الحفاظ على الأمن والسلم الدولي:** تسعى الدبلوماسية إلى حفظ الأمن والسلم الدولي من خلال التواصل مع الدول الأخرى والعمل على حل النزاعات الدولية وتحقيق السلام والاستقرار في المناطق المتأزمة.

4. **التوسط في النزاعات الدولية:** تعمل الدبلوماسية على التوسط في النزاعات الدولية والعمل على تحقيق الحلول السلمية والمستدامة لهذه النزاعات.

5. **التعاون الدولي:** تتناول الدبلوماسية التعاون الدولي وتحقيق الفائدة المشتركة بين الدول في مجالات مختلفة مثل السياسة والاقتصاد والتجارة والثقافة.

الدفاع عن مصالح الدولة: تسعى الدبلوماسية إلى الدفاع عن مصالح الدولة في الخارج من خلال تمثيلها بشكل رسمي والعمل على حماية مصالحها وضمان استمراريتها في مختلف المجالات.

❖ **التحديات التي تواجه الدبلوماسية مستقبلا:**

تواجه مجال الدبلوماسية مستقبلًا تحديات متعددة في حل النزاعات بين الأمم واتخاذ القرارات السليمة لبناء السلم وتعزيز الاستقرار الدولي. من بين هذه التحديات:

- ✓ **تعقيدات النزاعات الحديثة:** تزايد تعقيدات النزاعات الدولية والإقليمية، بما في ذلك النواحي الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية، تضع ضغوطًا على عمليات الوساطة وحل النزاعات.
- ✓ **تطورات التكنولوجيا:** استخدام **التكنولوجيا** في مجال الأمان والحرب الإلكترونية تعزز تعقيدات الأمان الدولي وتتطلب استجابة دبلوماسية فعّالة للتعامل مع هذه التحديات.
- ✓ **التغيرات المناخية:** تأثير التغيرات المناخية **على** الأمن الإنساني والاقتصاد يتطلب تعاون دولي قوي وجهود دبلوماسية للتصدي لتلك التحديات البيئية.
- ✓ **تحديات الأمن الصحي** :الأزمات الصحية العالمية، مثل جائحة الأمراض المعدية، تبرز أهمية التعاون الدولي والتنسيق الدبلوماسي للتصدي لتداول الأمراض و تأثيراتها.
- ✓ **الصراعات الثقافية والدينية:** التوترات **الناجمة** عن الاختلافات الثقافية والدينية تستدعي جهوداً دبلوماسية لتعزيز فهم متبادل وتعايش سلمي.
- ✓ **تحولات في الهيمنة العالمية** :تغيرات في **التوازنات** الاقتصادية والسياسية العالمية تتطلب من الدبلوماسية التكيف مع تحولات الهيمنة والنفوذ.

لمواجهة هذه التحديات، يلزم تعزيز التعاون الدولي وتطوير استراتيجيات دبلوماسية مبتكرة وفعّالة تستجيب لتحولات العالم الراهنة والمستقبلية، وقد عرف العالم حاليا تطورا في التعاملات الدبلوماسية بعد ظهور الإنترنت والتقنيات الرقمية، حيث تستخدم الدبلوماسية الرقمية، المعروفة أيضًا باسم الدبلوماسية الإلكترونية، وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات عبر الإنترنت والاجتماعات الافتراضية للتواصل مع الحكومات الأجنبية والجماهير العالمية، إذ يسمح للدبلوماسيين بالوصول إلى جمهور أوسع، والانخراط في الدبلوماسية العامة، والاستجابة للقضايا العالمية بسرعة، كقضية الأمن السيبراني والمعلومات المضللة وخصوصية البيانات[29].

خاتمة:

إن العلاقات الدبلوماسية تاريخيا نشأت منذ نشأة الإنسان والمتصفح لتاريخ العلاقات الدولية يرى أنها قامت بين الحضارات القديمة وشملت كافة نواحي الحياة وأخذت أشكالاً وأنماطاً متعددة تلاءمت مع الظروف والأحوال التي كانت سائدة آنذاك. في هذا السياق، يكمن فهم الدور المحوري للدبلوماسية في تحقيق التفاهم وتجاوز الخلافات. وفي ظل التحولات المستمرة التي يعرفها العالم اليوم، يتعين علينا أن نستفيد من دروس التاريخ لتعزيز قدرتنا على مواجهة التحديات الجديدة.

في خضم هذا التواصل بين التاريخ والدبلوماسية، يبرز دور القادة الدبلوماسيين الذين يسعون إلى بناء جسور التفاهم وتعزيز السلم العالمي. إن استمرارية هذه الروح الدبلوماسية تمثل مفتاح استدامة السلام والاستقرار. لذا، فإن النظر إلى المستقبل يتطلب منا الاستفادة من تجاربنا التاريخية لتطوير استراتيجيات دبلوماسية تتناسب مع طموحات العالم الحديث، وتسهم في بناء مجتمع دولي يسوده الفهم والتعاون

إن علاقة التاريخ بالدبلوماسية علاقة وطيدة من خلالها يمكن فهم تقلبات العلاقات الدولية، حيث يعكس التاريخ تأثير القادة والدبلوماسيين في توجيه مسار الأمم وتشكيل قراراتها الحاسمة في الحاضر والمستقبل، وهذا ما يفتح الباب أمام تشكيل مستقبل يعتمد على التعاون الدولي والحوار الدبلوماسي لتحقيق السلم والاستقرار الدولي. وتظل الدبلوماسية ركيزة أساسية للتفاعل الإنساني، حيث يجتمع التاريخ والحاضر لصياغة مستقبل متوازن ومزدهر للأمم.

الهوامش:

1- عبد الرحمن بن خلدون، "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982، ج.1، ص.1.

2 – عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، جزءان في مجلد واحد، المركز الثقافي العربي، البيضاء – بيروت، 1992، ص 29.

3- عبد العليم عبد الرحمان خضر (المسلمون وكتابة التاريخ – دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ-) الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993، هيرندن- فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية ص 22..

4- محمد صامل السلمي (منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه) الطبعة الأولى، 1988، المملكة العربية السعودية، ص47.

5- عبد العليم عبد الرحمان خضر (المسلمون وكتابة التاريخ)، م. س، ص24.

6 -ابن خلدون (عبد الرحمان): مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، 1976، ص 17.

7- د.قاسم عبده قاسم: إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي 78، أكتوبر 2009، ص 5

8 -نايف الفضلي، الدبلوماسية .. تاريخ وتطور، مقال على مجلة القافلة، نوفمبر ديسمبر 2021،
https://qafilah.com/الدبلوماسية-تاريخ-وتطور/

9- تعريف الدبلوماسية على موقع الأنترنيت:
https://cte.univ-setif2.dz/moodle/mod/book/tool/print/index.php?id=12240

10 – علي حسن الشامي، الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية، ص28، ط3، دار الثقافة، 1428هـ/2007م.

11 – المصدر نفسه، ص 36.

12- عمر توفيق كمال، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، ص 17

13المرجع نفسه، ص 17

14 توفيق عمر كمال، المرجع السابق، ص 20

15- جاء تعريف معاوية بن أبي سفيان للعلاقات الدبلوماسية، حيث تضمنت هذه المقولة الشهيرة وصفا دقيقا للعلاقات التي تقوم بين البشر، مشبها الدبلوماسية بالشعرة، حيث تتميز بالدقة والمرونة والحرس على استمرار هذه العلاقات وعدم انقطاعها حتى ولو كانت معلقة على شعرة.

16 – حنان خميس، تاريخ الدبلوماسية، دراسات على الأنترنيت،

http://www.siironline.org/alabwab/derasat(01)/208.htm

17- علاء أبو عامر، الوظيفة الدبلوماسية: نشأتها مؤسساتها، قواعدها، قوانينها، دار الشروق للنشر والتوزيع الأردن، 2001، ص 21.

18- سعيد محمد أبو عباه، الدبلوماسية تاريخها مؤسساتها أنواعها قوانينها، مجلة شؤون قانونية، مقال على الأنترنيت:

https://maarifalma4rib.blogspot.com/2019/04/1-62.html

19 – سعيد محمد أبو عباد، مرجع سابق،

20- عبد الواحد الناصر، المتغيرات الدولية الكبرى، متغيرات السياسة الدولية في بداية القرن الحادي والعشرين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2004، ص 12

21 – عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم، المجلد 1، ص 38.

22- عمر توفيق كمال، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، ص 17

23- تُعد معاهدة "قادش" للسلام، أو معاهدة "كينزا" كما تُعرف باللغة الحثّيّة، أقدم معاهدة سلام عرفتها البشرية، ولا تزال محفوظة في متحف إسطنبول الأثري. وُقّعت المعاهدة بين ملك الحيثيين خاتوشيلي الثالث والفرعون المصري رمسيس الثاني بعد معركة قادش عام 1274 قبل الميلاد. دُوّنت المعاهدة على لوح حجري باللغة الحثّيّة، وعُثر عليها في المعبد الكبير في "خاتوشا" عاصمة الإمبراطورية الحيثية القديمة، كما توجد منها نسخة مصرية منقوشة داخل معبدين في "الكرنك" بمدينة "طيبة" الفرعونية.

مقال على الأنترنيت " معاهدة "قادش" أقدم معاهدة سلام في تاريخ البشرية، مقال على جريدة ترك برس التركية.

http://www.turkpress.co/node/72088

24- قاسم محمد عثمان، الدبلوماسية وتاريخها، مقال على مجلة دنيا الوطن، على الأنترنيت بتصرف، 2006 – 04- 27.

https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/43545.html

25- يعتبر صلح وستفاليا" أولَ اتفاقيه دبلوماسيه فى العصرِ الحديثِ والتى أرسى نظام جديد فى اوروبا الوُسطى والغربيه مبنى على مبدأ سيادةِ الدولِ. أصبحتْ مقررات الصلح جزء منَ القوانينِ الدستوريّةِ للامبراطوريةِ الرومانيةِ المقدسةِ .فى الغالب تعتبر اتفاقية البرينيه الموقّعة سنةَ1659م بينَ فرنْسا واسبانْيا جزء متمم للاتفاقِيّاتِ العامه المعروفه بـ"صلحِ وستفاليا" الموسوعة الحرة ويكيبديا، معاهدة وستفاليا /https://arz.wikipedia.org/wiki

26- السخري أحمد، الدبلوماسية في العصور الحديثة، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، بتصرف، مقال على الأنترنيت:

.https://www.politics-dz.com/ar

27-- السخري أحمد، الدبلوماسية في العصور الحديثة، مرجع سابق

28- السخري أحمد، الدبلوماسية في العصور الحديثة، مرجع سابق،

29- التمثيل الدبلوماسي من العصور القديمة إلى القرن الحادي والعشرين، مقال على مجلة عرب الإلكترونية.

التمثيل-الدبلوماسي-من-العصور-القديمة-إلى-القرن-الحادي-والعشرسن/ https://www.arab48.com